

# المستشرقون وتدوير الحقائق التاريخية

■ في العدد التاسع والعشرين من مجلة الأمة ( جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ ) نشر ملخص لمحاضرة القاها الدكتور محمود زقزوق موضوعها

• الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري .

وقد اعجبني قول الأستاذ المحاضر عن الاستشراق انه :

ليس علما باي مقياس علمي . وإنما هو عبارة عن ايدولوجية خاصة يراد من خلالها ترويح تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على اوهام وافتراضات .

إن الدارس لأعمال المستشرقين لا يحتاج إلى بذل جهد كبير ليرى

تعمدهم تزييف الحقائق واللجوء إلى منطق فاسد للوصول إلى نتائج

تهدف في النهاية إلى رسم صورة مشوهة سقيمة عن الإسلام في نظر القراء

الغربيين . وإلى زلزلة عقيدة الإسلام وتمييعها في أعين ابنائها

من المسلمين .

وحين لا يظن ظان ان هذه الأحكام تساق جزأفاً وافتراءً : فإننا نسوق في هذا المقال

نماذج من اعمال المستشرقين لعلها تساعدنا على فهم منهجهم ..

ولقد اخترت - لهذا الغرض - فصلاً صغيراً من فصول التاريخ الإسلامي المبكر لا يحيط به أي غموض .

ولا يختلف فيه مؤلفو كتب التاريخ والسير . ولا تتناقض فيه الروايات . ذلك هو غزوة الخندق .

ونكتفي هنا بمقدمات الغزوة فقط .

ولعل هذا الجزء الصغير الذي لا يتجاوز اسطراً معدودة في أي مرجع تاريخي يعطينا رؤية مجهرية

واضحة ربما تكون اصلح للكشف عن الصورة الكلية بجلاء .. والله تعالى هو خير معين ■■

## التأييد الديني والسياسي للاستشراق ..

إن الاستشراق مدرسة فكرية عريقة تضرب جذورها في الزمان منذ بدا الغرب النصراني يتطلع إلى هزيمة الإسلام وقهر المسلمين والسيطرة عليهم . وهي تملك من أسباب القوة والرسوخ ما لا تملك مدرسة فكرية أخرى . ولعل مرجع هذا إلى أنها - دون سواها - حصلت منذ اليوم الأول - ولا تزال - على

تأييد ودعم كل من المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية هناك على حد سواء . هذا بالإضافة إلى ما تحمله من تقاليد التقدم العلمي وأساليب البحث والدراسة السائدة في الحضارة الغربية المعاصرة .

## التظاهر بالموضوعية ...

لذلك فإن أبحاث المستشرقين ودراساتهم لا تقدم الوسيلة

## ■ الاستشراق مدرسة فكرية بدأت منذ مطلع الغرب إلى هزيمة الاسلام وقهر المسلمين والسيطرة عليهم ..

في تاريخ الطبري كالاتي : [ إنه كان من حديث الخندق ان نفرأ من اليهود منهم سلام بن ابي الحقيق النضري ، وحيي بن اخطب النضري ، وكنانة بن الربيع بن ابي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وابو عمار الوائلي . في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل هم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله ﷺ ، وخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم إلى حرب الرسول ﷺ . وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم اهل الكتاب الاول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، اقدیننا خير ام دينه ، قالوا : بل دينكم خير من دينه . وانتم اولى بالحق منه .. فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجمعوا لذلك واتعدوا له .

ثم خرج اولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب الرسول ﷺ واخبروهم انهم سيكونون معهم عليه . وان قريشاً تابعوهم على ذلك واجمعوا فيه فأجابوهم [١٠] .

إذن فإن يهود بني النضير هم الذين جمعوا الاحزاب واليهود ضد المسلمين في المدينة . وعلى هذا أجمعت امهات كتب السيرة والتاريخ الإسلامي . وازداد الواقدي إلى هذه الرواية ان يهود بني النضير وعدوا غطفان بتمر خبير لمدة عام [١١] ، وانهم قالوا لابي سفيان : [ اخرج خمسين رجلاً من بطون قريش كلها أنت فيهم . وندخل نحن وانتم بين استار الكعبة حتى نلصق أكبادنا بها ، ثم نحلف بالله جميعاً لا يخذل بعضنا بعضاً ، ولتكونن كلمتنا واحدة على هذا الرجل ما بقي منا رجل ] [١٢] .

ولقد سجل القرآن الكريم ذلك الموقف المخزي عن اليهود عندما ادعوا كذباً وضلالاً - وهم اهل كتاب - ان دين كفار مكة خير من دين محمد عليه الصلاة والسلام الذي من عند الله وذلك بقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ (النساء : ٥١) .

المثل في الظهور والانتشار ، وإن القارئ الذي لم يعرف الإسلام معرفة واعية غالباً ما يمتلكه الإعجاب الشديد بكتاباتهم : فالأسلوب بيدو علمياً مُدققاً وموضوعياً بعيداً عن الهوى . وفهارس الكتاب والجداول والملاحق والخرائط ... إلخ كلها تدعم هذا الظن ، ثم تجيء المقدمات التي يشرح فيها الكاتب منهجه ويبين ما قام به من جهد ليضمن أكبر قدر من الدقة العلمية ، وغالباً ما تتضمن هذه المقدمات الضافية عبارات تنفي عن صاحبها ما لصق بالمستشرقين من شبهات . كأن يقول « رودنسون » مثلاً :

[ لم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته ] [١٣] ، وان يقول « مونتجمري وات » : [ إن الباحثين الغربيين قد شككوا في كل المراجع القديمة حتى إن بعضهم لم يقبل سوى القرآن كمرجع غير قابل للتشكيك فيه . فإن صدق هذا لاستحالت علينا كتابة سيرة محمد ] [١٤] .

و « مونتجمري وات » هذا هو أبرز المستشرقين الذين تناولوا سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بالكتابة . وله ثلاثة كتب هي عندهم من أهم ما كتب عن حياة الرسول العربي ﷺ وهي : محمد في مكة ، و ، محمد في المدينة ، و ، محمد النبي ورجل الدولة .

وقد انتقد « وات » منهج السابقين وادعى انه يخالفهم ، فيقول في المقدمة نفسها :

[ هذه الدراسة معتمدة على وجهة نظر مضادة لوجهة النظر السابقة وهي اننا يمكننا على الأقل قبول مواد السيرة النبوية التي كتبت مبرراً إلا في المواضع التي نظن عندها ان رواية ما قد شوهدت او اختلفت لأسباب دينية او سياسية ] [١٥] .

وفي مقدمة كتاب « محمد في المدينة » يسوق حديثاً مشابهاً ويؤكد انه لم يهمل أي حدث له أهمية في التاريخ الإسلامي : [ وإنني أؤكد - على أية حال - انني لم اترك أي شيء ذا أهمية ] [١٦] .

فهل فعل هذا ؟ وهل فعله الآخرون ؟

أسباب غزوة الخندق في المصادر الإسلامية ..

وقعت غزوة الخندق في سنة خمس من الهجرة ، وجاء ذكرها

# المستشرقون وتدوين الحقائق التاريخية

وهكذا كونوا مجتمعين نحو عشرة آلاف رجل وستمانه  
حصان<sup>(١٤١)</sup>.

ويرد « تور أندريه » في كتابه « محمد . الرجل ودعوته .  
الادعاء نفسه فيقول : [ وأخيراً أدركت قريش أهمية أن تحاول  
بكل قوتها ضرب قوة محمد المتزايدة ، هذه المرة جاؤوا  
بجيش يقال أنه لا يقل عن عشرة آلاف رجل ]<sup>(١٤٢)</sup> .  
وهذا « مكسيم رودنسون » يشك في مصادر التاريخ  
الإسلامي ويلمح إلى أن أبا سفيان هو الفرد الذي أخذ على  
عاتقه تجميع الأحزاب فيقول : [ ... ولكن أبا سفيان لم يتوقف  
عن التحرك ، ومضت عملية تجميع الأحزاب في نشاط .  
وتسند الروايات المسلمة دوراً رئيساً في تكوين الأحزاب  
إلى يهود بني النضير الذين اتخذوا خبير ملجأ لهم . وسواء  
كان ذلك صحيحاً أم لا فإن قريشاً واليهود قد حصلوا  
بالتأكيد على مساندة عدد من القبائل القوية وخاصة غطفان  
التي حصلت لنفسها على صفقة طيبة في مقابل  
مساعدها ]<sup>(١٤٣)</sup> .

ولعلنا نكون قد لاحظنا أسلوب التلميح والإيحاء الذي اتبعه  
الكتاب ، والذي يبدو كأوضح ما يمكن في قول « رودنسون » .  
فلقد تعدد التلميح دون التصريح في كل ما ادعاه : لمح إلى أن  
أبا سفيان هو الذي جمع الأحلاف دون أن يذكر ذلك صراحة ،  
ولمح أيضاً إلى كذب الروايات المسلمة التي تتهم اليهود دون أن  
يصرح بذلك أيضاً ، ثم أشار إلى رشوة غطفان دون أن يحدد من  
الذي قام بتقديمها .. وليس « رودنسون » وحده من يلجأ إلى  
هذا الأسلوب الملتوي لتزييف الحقائق ، وإنما يكاد هذا  
الأسلوب أن يكون أحد السمات البارزة المميزة لأدب  
المستشرقين والدالة عليهم كما يدل الطبر على وجود الماء في  
الصحراء .

## إجماع على الخطأ !!!

ونسوق في الأسطر القليلة القادمة ما كتبه رهب آخر من قمة  
باحثي الغرب وجهابذة المستشرقين الذين كتبوا تواريخ شاملة  
للإسلام منذ ظهوره حتى العصر الحديث ، فيقول « كارل  
بروكلمان » في كتابه الشهير « تاريخ الشعوب الإسلامية » :  
[ ... ولكن في هذه الأثناء نجح المكبوتون في تكوين حلف  
عظيم ضد محمد ، ففي حوالي شهر مارس (آذار) سنة ٦٢٧  
ميلادية تحرك جيش من نحو عشرة آلاف رجل منهم أربعة  
آلاف من قريش للهجوم على المدينة بقيادة أبي سفيان ]<sup>(١٤٤)</sup> .  
و « فيشر » في كتابه « الشرق الأوسط . يلجأ إلى  
الإبهام ، ويبرز دور أبي سفيان فيقول : [ ... وبعد عامين عاد  
أبو سفيان مرة أخرى مع جيش ضخم ]<sup>(١٤٥)</sup> .  
و « شوبلر » يردد القول نفسه في كتابه « العالم  
الإسلامي » : [ ... في عام ٦٢٦ - ٦٢٧م ظهر خطر جديد  
عندما خطط المكبوتون لحصار المدينة بجيش يبلغ نحو  
عشرة آلاف رجل ]<sup>(١٤٦)</sup> .  
و « فيليب حتي » المستشرق اللبناني الأصل يقول في كتابه

## تحريف المستشرقين لما نقلوه عن المصادر العربية ...

والآن لنر كيف كتب المستشرقون هذا الفصل القصير  
المتماهي في البساطة والوضوح .

كتب « مونتجمري وات » في كتابه « محمد في المدينة »  
الذي نشر سنة ١٩٥٦ ميلادية يصف خروج الأحزاب بقوله :  
[ كان غاية جهد أهل مكة أن يدمروا قوة محمد . لهذا فقد  
جمعوا كثيرين من أحلافهم وبعض القبائل البدوية ، أما  
يهود بني النضير الذين أبعدهوا إلى خيبر فقد كانوا  
حريصين على استعادة أرضهم في المدينة ، لذلك فقد لعبوا  
دوراً كبيراً في تجميع الأحزاب . ووعدت غطفان بأن تحصل  
على نصف ثمر خيبر إن هي اشتركت في الهجوم على  
المدينة ... ] ص ٣٦ .

وحسب هذه الرواية يكون الدور الأساسي في تجميع  
الأحزاب لقريش ، بينما يجيء دور اليهود في المرتبة الثانية ،  
ونلاحظ أن « وات » قد بنى فعل « وعدت » للمجهول بحيث  
يهرب من التصريح بأن أصحاب الوعد كانوا هم اليهود ،  
وليومم باحتمال أن تكون قريشاً هي التي قامت برشوة غطفان .  
إلا أنه لم يثبت على اعتقاده هذا ، بل تزحزح عنه عدة خطوات  
في كتابه « محمد النبي ورجل الدولة » الذي نُشر سنة ١٩٦٦م  
- أي بعد خمس سنوات من كتابه السابق - فيدعي أن اليهود لم  
يكن لهم أي دور سوى مساعدة أهل مكة في إعداد الحملة .  
ص ١٦٦ .

وفي مقاله عن حكومة المدينة التي ظهرت في « تاريخ  
كمبريدج للإسلام » ١٩٧٠م عاد « وات » وتزحزح خطوات  
أخرى جعلته يتجاهل دور اليهود تماماً كأنه لم يكن لهم دور يذكر  
في خروج الأحزاب ، ويدعي أن مكة هي التي قامت بإغراء  
غطفان للاشتراك في الغزوة مقابل تمر خيبر ، فيقول : [ قضت  
مكة العاميين التاليين لغزوة أحد في الاستعداد للقضاء على  
المسلمين . لكن أبا سفيان لم تكن له القيادة المطلقة هذه  
المرة ، وإنما تعددت القيادات ولم تساعد الخلافات بينها على  
نجاح الجهد الحربي . ومع ذلك فقد أمكن مكة تجميع ما بين  
سبعة آلاف إلى عشرة آلاف رجل وستمانه فارس ، وذلك  
بتجميعها ما أمكنها جمعه من رجالها ومن حلفائها  
وباستخدام مختلف الوسائل لإغراء القبائل البدوية على  
الاشتراك في الحملة ]<sup>(١٤٧)</sup> .

## تعمد المغالطة في مصادر مختلفة ..

وفي مقاله عن الخندق في « دائرة المعارف الإسلامية »  
١٩٧٨م يكرر المغالطة نفسها فيقول : [ ظل المكبوتون يعدون  
لهذا الهجوم على المدينة منذ معركة أحد قبل عامين ،  
وامكنهم إغراء بعض القبائل البدوية للحاق بجيش مكة ،



■ مكسيم  
رودنسون ..  
الأسلوب  
المثالي لتزييف  
الحقائق ■



■ محمود  
ذوق ..  
الاستشراق ليس  
علماً بأي مقياس  
علمي ■

خديجة صار له في آخر سني عمره ما لا يقل عن عشر زوجات [١٧] .  
فما علاقة هذا بالاختصار؟! دع عنك التساؤل عن الصدق والامانة العلمية ، واسلوب الكتابة التزييه وغيرها من الصفات التي طالما يطبل لها المستشرقون ويذمرون ويملؤون بها الدنيا طنيناً .  
إن من يتابع بقية أحداث غزوة الخندق - وما هي إلا مجرد نموذج واحد فقط من اعمال المستشرقين في تاريخنا الإسلامي - يجد في دراساتهم المزيد من الإفك .. ركام يعقبه ركام يعقبه ركام .. هوننتاج مدرسة الاستشراق ، قمة الإبداع الفكري الغربي الحديث .  
وسبحان رب العزة لا إله إلا هو .

### هـوامش :

- (١) مجلة الأمة ، جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ . ص ٢٢ .
- (2) Montgomery Watt, Muhammed Prophat and Statesman (London, 1961)
- (٣) المرجع السابق نفسه .
- (4) Montgomery Watt, Muhammed at Medina (London, 1956).
- (٥) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ( القاهرة ١٩٦١ م ) ج ٢ . ص ٥٦٥ - ٥٦٦ .
- (٦) الواقي . كتاب المغازي ( لندن ١٩٦٦ م ) ج ٢ . ص ٤٤٣ .
- (٧) المرجع السابق نفسه . ص ٤٤٢ .
- (٨) انظر تفسير الآية الكريمة لتجد الرواية نفسها عن دور يهود بني النضير في تاليف الأحزاب ضد الرسول عليه الصلاة والسلام .
- (8) Muhammed, The Cambridge History of Islam, I (London, 1970) p. 48.
- (9) Al-Khandak, The Encyclopaedia of Islam, IV (Leiden 1978) p. 1020
- (10) Tor Andrae, Mohammed The Man and His Faith (New York, 1960) p. 154.
- (11) Maxime Rodinson, Mohammed, (New York, 1971) p. 208.
- (12) Cari Brockelmann, History of the Islamic Peoples (New York, 1960) p. 25.
- (13) Sydney Fisher, The Middle East (New York, 1966) p. 39.
- (14) B. Spuler, The Muslim World - A Historical Survey, I (Leiden, 1960) p. 12.
- (15) Philip Hitti, History of the Arabs from the earliest times to the present (New York, 1958) p. 117.
- (16) Bernard Lewis, The Arabs in History (New York, 1966) p. 45.
- (17) Spuler, p. 12.

« تاريخ العرب من أقدم العصور حتى الآن » : [ ... في سنة ٦٢٧م قام الأحزاب المكونون من أهل مكة والبدو والمرتبقة الاحباش بالهجوم على المدينة ] [١٨] .  
و « برنارد لويس » يقول في كتابه « العرب في التاريخ » :  
[ ... في ربيع سنة ٦٢٧م تقدم جيش من مكة يتكون من نحو عشرة آلاف رجل نحو المدينة وضربوا عليها الحصار ] [١٩] .  
والذي يدهشنا بحق هو هذا الإجماع الغربي على الخطأ ، فليس هناك فرد واحد بين هؤلاء نقل بأمانة ما جاء في المراجع التاريخية القديمة التي أجمعت كلها على رواية واحدة . ولو كانت هناك مراجع أخرى تناقض في روايتها هذه المراجع لظلت دهشتنا أيضاً عظيمة ، لأن هذا الجم الغفير من الدارسين المعروفين أخذ برأي واحد دون أن يشذ عنه أحد وهم ابناء حضارة من اهم معالمها الاختلاف والتغير السريع ، والذي يضاعف من دهشتنا أكثر وأكثر أننا لا نزال نرى حرصهم على التنبيه إلى أن مراجعهم الرئيسية - Primary Sources - هي القرآن الكريم وسيرة ابن هشام ومغازي الواقي وتاريخ الطبري ... وهكذا ...

### شبهة الاختصار وردها ...

وقد يظن واحد من حسني النوايا - وهم كثيرون بيننا - أن للاختصار ضريبته التي لا بد أن ندفعها ، وأن معظم هذه الكتب التي ذكرناها آنفاً هي كتب تاريخ عام لا تتسع للوقوف عند التفاصيل ، لكن هذا القول لا يصدق على ما سبق أن سقناه من نماذج ، فإن الاختصار شيء ، وتزييف الوقائع التاريخية شيء آخر ، كما أننا نفاجاً بالإطناب في مواضع أخرى حيث لا ضرورة للإطناب . فإن « شمولر » الذي وصف أسباب غزوة الخندق بهذا السطر المسرف في اختزاله وإيهامه : [ ... في عام ٦٢٦ - ٦٢٧م ظهر خطر جديد عندما خطط المكيون لحصار المدينة بجيش بلغ نحو عشرة آلاف رجل ] يختم حديثه عن تلك الغزوة وما انتهت إليه من تأديب رادع لبني قريظة بالتالي :  
[ ... الآن امكن محمداً ان يقدم على مغامرة تهدف إلى استئصال آخر القبائل اليهودية في المدينة . وبمناورة بارعة تمكن من إقناع بقية سكان المدينة بالموافقة على قتل رجال تلك القبيلة وسيبي نساؤها ومصادرة ممتلكاتها ، وكان نصيب محمد من الغنائم فتاة يهودية قام بضمها لحريمه الخاص بعد ان تلقى وحيأً خاصاً يصرح له بتجاوز الحد الأقصى لعدد الزوجات وهو اربع الزوجات المصرح به لبقية رجال المسلمين ، فما كان منه إلا أن قام باستغلال هذا التصريح ، وبعد ان ظل محتفظاً بزوجة واحدة حتى موت